المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية

بحوث ودراسات في العلوم الاجتماعية

السنة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

بحوث ودراسات فى العلوم الاجتماعية
السنة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
Research and Studies in Social Sciences
VOLUME 1 1986

رحلة عبر تهامة وعسير
وجبال الحجاز

بقلم : ويلفرد تسيجر
ترجمة الدكتور عبدالله ناصر الوليعي
أستاذ مساعد بقسم الجغرافيـا

رحلة عبر تهامة وعسير وجبال الحجاز[1]

بقلم : ويلفرد تسيجر[2] ترجمة : د. عبدالله ناصر الوليعي[3]

فى عام ١٩٤٥ وبعد أن قضيت شهرين بين البيوريتانيين المتزمتين جداً[4] فى نجد مررت سريعاً عبر تهامة فى طريقى من جدة إلى جيزان. ومنذ ذلك الوقت لا زلت أتذكر هؤلاء الناس الطيبين أصحاب الوجوه الباسمة. وفي عام ١٩٤٦م وبعد أن طردني حر الصيف من الربع الخالى عدت مرة أخرى مشتاقاً لرؤية هذا العنصر الطيب.

عندما كنت موظفاً فى وحدة الشرق الأوسط لمكافحة الجراد سافرت خلال شهور أبريل ومايو ويونيو لمسافة ٩٥٠ ميلاً [١٥٢٩ كم] عبر تهامة وعسير وجبال الحجاز بدءاً بالقنفذة حتى حدود اليمن ثم عدت إلى الطائف مروراً بأبها[5].

بدأت رحلتى من وادى الأحسبة شمال القنفذة وكان معى حارس حكومى، شاب من خدم الشريف، وشابان آخران لقيادة الإبل الأربعة المستأجرة والتى يربط خطام كل منها بذنب الذى قبله على الطريقة المتبعة فى تهامة، ولا يسمح للجمال أن ترعىٰ بل أنها أبداً مكممة بشبكة على شكل كيس [تسمى شمامة] وعبرها يتم إطعام الإبل بوضع الذرة فيها من قبل الراعى وكذلك قصب الذرة والذى يحمل عادة على شكل حزم كبيرة على جنبات الجمل. وتأمين كميات كافية من هذا العلف غالباً ما يكون باهظ الثمن وصعب المنال. وتمتاز الإبل التهامية بأنها تستطيع حمل أحمال ثقيلة ولكنها سرعان ما تصبح ضعيفة ومقعدة عندما تسافر عبر أرض صخرية كما أنها لا تتحمل المشى فوق الصخور. وتروى هذه الجمال عادة مرة فى اليوم ومرتين فى الجو الحار. ويسافر هؤلاء العرب طوال الصيف فى الليل نائمين على الأحمال[6] على ظهور الجمال التى تتبع طريقها بدون تردد. ومع ذلك فقد رفضت السفر ليلاً رغم ارتفاع درجة

الحرارة نهاراً إذ أن موافقتى كانت ستحرمنى من فرصة المشاهدة والملاحظة والتى لا تتوافر إلا نهاراً.

تتبعت ورفقائي وادى الأحسبة صاعدين حتى المخواة. ويسكن فى هذا السهل الساحلى فخذ العبادلة من الأشراف ولكن طبيعة هذا السهل تتحول من سهل إلى أرض مملؤة بفتات الصخور حيث لا يوجد إلا عدد قليل من القرىٰ وبعض الزراعة. وأمـامنا بعيداً كانت تبدو الحافة الصخرية لجبال الحجاز وقريباً منا توجد قمتا شدا اليمانى وشدا الشامى اللتان تتكونان من حجر الجرانيت وترتفعان إلى حدود ٨٠٠٠ قدماً وهما من معالم عفار. وتتم زراعة البن فى هذه الجبال على الرغم من أنها لا تزرع فى الجبال الرئيسية ناحية الشمال.

المخواة قرية بيوتها مبنية من الحجر ومن طابق واحد وفيها سوق الخميس المهم[٧]. تقع المخواة بين شدا وحافة الجبال حيث تتداخل الأودية والتلال المقطعة والتى تقع على قممها بقايا قرى قديمة جداً وهى فى بلاد بنى عمر وتتبع إدارياً الظفير. وتباع فى سوق الخميس البقر والغنم والماعز وبعض الإبل والحمير إضافة إلى الحبوب والقهوة والملح والأقمشـة والأوانى الخزفية، والحصير، والسلال والحبال، وأحجار الرحىٰ، والخضر، والعسـل، وأعشـاب ذات رائحـة حلوة. ويقوم رجال القبائل من غامد وزهران بزيارة هذا السوق بأعداد كبيرة متوشحين بالخناجر وكما هى العادة فى كل الحجـاز يقـومـون بتطريز ثيابهم الخارجية بأشكال مميزة ذات خطوط حمراء. ويأتى أكثـرهم مكشـوفـ الـرأس ويقومون بتتويج شعورهم بعصابة من عشب ذا رائحة عطرية، وبعضهم الأخر يلبسون غترة وعقالاً مزخرفاً بخيوط من فضة أو ذهب.

بعد أن غادرنا المخواة سافرنا عبر سفوح الجبال والتى ترتفع حافاتها شديدة الإنحدار إلى ٣٠٠٠ قدماً [٩١٤ متراً] فوق رؤوسنا. وتتبع هذه البلاد قبيلة غامد القوية والتى يسكن معظم أفرادها فى الجبال إلى الشرق من هنا وتتوزع مزارعهم ومساكنهم على طول وادى بطاط والذى حولت ضفافه إلى مصطبات للزراعة والتى يتم سقيها عن طريق الرى من الآبار وبالفيضان عند هطول الأمطار.

فيما وراء بطاط عبرنا رأس قنونه ودخلنا بلاد بلعريان وهى بلاد جرانيتية خصبة محمية بعدد كبير جداً من أبراج المراقبة وعندما وصلنا إلى مركز ثريبان الصغير فى اليوم التالى استمتعنا بضيافة الأمير والذى كان كريماً. وخلال ساعات الصباح الأولى الباردة سافرنا من هنا وسط حشد من القرويين على الحمير والجمال المحملة إلى سوق الثلوث [الثلاثاء] والذى يقع وسط تلال جرانيتية تناثرت على سطوحها جلاميد الصخور على ضفاف وادى يبا والذى يمتلىء بأشجار النخيل بالإضافة ألى محصولات ممتازة من الذرة والسمسم والتى تروى من جريان الماء فى الوادى. وهنا يقع سوق عمارة وهى قبيلة جذابة تشبه عرب تهامة ويلبسون مئزراً قصيراً مع خنجر محزوم فى الأمام ويزينون شعورهم الطويلة بأعشاب ذات رائحة عطرية يشترونها من السوق. ويلبس عدد قليل من الرجال ومعظم النساء قبعات من القش. أما قبعات الرجال فهى لينة وعريضة الحواف وأما قبعات النساء فصلبة وصغيرة الحواف ولها ذروة مرتفعة. وبعد أن عبرنا الجدول كان هناك راع شاب وسيم قد ملأ حدائق النخيل بموسيقى أخاذة من مزماره وبعد ذلك دخلنا أرضاً جرداء ذات صخور نارية وتلال مسننة حيث توجد أشجار الوهط متفرقة وقد كستها الزهور رغم أنه لا أوراق لها.

واستمرت هذه الأرض المقفرة حتى وصلنا إلى وادى خاط وأراضى قبيلة حميضة المزروعة فى بارق[٨]. وتشبه قبيلة حميضة العمارة وتعيش فى بيوت مستوية السطوح ومبنية من الحجر بطريقة ممتازة. وتملك هذه القبائل المستوطنة عدداً قليلاً من الجمال وبعض البقر وقطعان لا بأس بها من الغنم والماعز[٩]. ولكنهم فى الغالب فلاحين يزرعون الذرة أو الدخن فى سهول صغيرة تروى بالفيضان أويزرعونها فى مجارى الأودية الغنية بالطمى. وتقع فيما وراءهم بلاد آل جبلى والذين يعيشون على ضفاف وادى جبلى أحد روافد وادى حلى المهمة ولكننى عدلت عن زيارتهم رغبة فى الوصول إلى وادى حلى والذى كنت تواقاً لتتبعه ليقودنى إلى الساحل لرؤية عرب تهامة الذين يهمنى أمرهم.

نحن الآن خارج البلاد المزروعة فى بلاد البدو؛ وأعنى بهم قبائل الرعاة والقاطنين فى البلاد المتقطعة فيما بين الجبال والسهل الساحلى وهم يشتغلون برعى قطعان الماعز

بصفة رئيسية ولكنهم يملكون أيضاً بعض الأغنام والبقر وعدد قليل جداً من الإبل. كما أنهم يزرعون رقعاً صغيرة على طول ضفاف الوادى. ولا تستعمل هذه القبائل بيت الشعر؛ الخيمة السوداء المستعملة فى أواسط شبه الجزيرة العربية بل إنها لا ترى غرب جبال الحجاز ولكنهم يسكنون فى ملاجىء صغيرة من الحصير تعرف بالخدر، وأثاثهم الوحيد عبارة عن عدد محدود من الأسرة ذات الأسلاك. وهذه القبائل هي: الطحاحين، ربيعة، أم صيفارة ، بنى هلال، المنجحة، وإلى الجنوب من هذه القبائل نجد القسم البدوى من قبائل بنى نمار، وشهران، وقحطان، وخولان، والريث. . . . ويلبس رجال هذه القبائل مئزراً قصيراً ذا لون أخضر أو أزرق، أو خمري أحمر أما النساء فيلبسن قبعة من القش ذات حواف صغيرة ولها ذروة عالية.

وصلنا وادى حلى فى الأرض المعروفة بالحلاوية حيث يوجد جدول صاف يجرى فى بطن الوادى عبر أرض جرداء متقطعة، وعلى ضفتى الجدول نجد أعشاب الحلفا وأجمات صغيرة من أشجار الوهط كالسلم والسمر. وعلى سفوح الجبال ذات الصخور النارية تنمو أشجار الوهط، والراك، ومرخ، والمادها ذات الزهور الحمراء، وأدنة ذات الزهور الجميلة والمحمولة على ساق بشع الشكل، ومرة، وحلبلب، وأشجار الصبر. ورأيت عدداً من الطيور منها: طيور البجع وأبو ملعقة وأبو منجل اللامع والتي تنتشر على طول بطن الوادى والذى تعج مياهه بأسماك صغيرة. كما لاحظت ـ أيضاً ـ وجود طيور اللقلق أبو مطرقه، والبلشون الأبيض، ومالك الحزين، وبعض الخرشنة، والدجاج الحبشى، والدراج، وأبو قرن، والشقراق الحبشى، وآكل النحل الأخضر، والتمير المعدنى، والصرد، والمثرثر، والبلبل، والوقواق، وبعض النسور.

يجرى وادى حلى عبر الممر الصغير المدعو حصن الطرفين Husn al Tarafain إلى السهل الساحلى الرملى حيث تقع أول قرية وهي قرية السبطة؛ سوق الإربعاء بالنسبة للوادى[١٠] ويقطنها العمور.

تتكون تهامة من سهل ساحلي رملى ضيق يتراوح عرضه ما بين ١٢ إلى ٢٠ ميلاً [١٩ ـ ٣٢كم] وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: تهامة الشام وتمتد من البرك حتى الليث فى

الشمال، وتهامة عسير وتهامة اليمن. وتتداخل البلاد الصخرية المتقطعة والتى يبلغ إرتفاعها ما بين ٥٠٠ إلى ٤٥٠٠ قدماً [١٥٢ ـ ١٣٧٢ متراً] بين تهامة الشام وحواف الجبال وتعرف بالعرضى ولكنها جنوب أبها تسمى حباطة وتدعى كل السلسلة الجبلية بما فيها عسير والتى يصل إرتفاعها إلى ٩٠٠٠ قدماً [٢٧٤٣ متراً] بجبال الحجاز. ويشيع بين الأهالى استعمال إصطلاحات شام للشمال ويمن للجنوب وجبلى للشرق وبحرى للغرب ويبدو إستعمالها منتشراً جداً. ويتركز سكان تهامة والمدعوون بالتهاميين بالأودية التى تجرى نحو الساحل كنهايات لأودية الجبال وهم مقيمون وليسوا رحلاً ولا يتصرف الواحد منهم بأرضه خارج قبيلته ولا يبيعها خارج طاعة أولاده إذا كان عنده أولاد والذين يرثون من أبيهم بالتساوى أما البنات فلهن نصف ما يأخذ الولد[١١].

وأهم أودية الشمال هى أودية الليث والدوقه والأحسبة وقنونة، ويبا، وحلى. ويبدو حلى كأعظم هذه الأودية بحوض تصريف يمتد من شرى فى الشمال وحتى طيه Taiya في الجنوب ويعلوه فى العظمة وادى بيش والذى مع عتود وضمد الصغيرين يمثلون أودية تهامة وعسير الرئيسية.

يسمى التهاميون أنفسهم بأسماء الوديان التى يقطنون فيها فمثلا سكان حلى حلوان وسكان يبا يبانه. ويسكن فى الوادى الواحد عدة قبائل ففى وادى حلى تسكن أربع قبائل وهى: علاوينه Alawina وسحاب Sahab وكنانة والعمور؛ وفى وادى يبا تسكن فيه قبائل بنى يالا والنواشره وبللعير والشاردى؛ وفى وادى الأحسبة يسكن فخذ العبادلة من الأشراف[١٢] ولا تدعى هذه القبائل بأنها ترجع إلى أصل واحد ولكنهم يصرحون بأنهم يتحدون تحت علم واحد أثناء الحروب.

ويوجد عدد كبير من الرقيق وخاصة فى تهامة وعسير ولكن أغلبهم الآن أحرار ويملكون أراض. ويهجر الوادى سكانه عندما لا يفيض إلى منطقة أخرى فى تهامة حيث يرحب بهم سكانها ويقوم القادمون بمساعدة سكان المنطقة على الحصاد وبعد انتهاء موسم الحصاد يرجعون إلى واديهم محملين بالحبوب. وإذا حصل العكس بأن سال واديهم فى سنين أخرى فإنهم يستقبلون مضيفيهم السابقين وهكذا.. ويجرى

العمـل بهذا النظام من جيزان إلى الليث ولقد واجهت عائلات قادمة من مشارف صبيـا في القنفذة. ويتكرر تعرض الأودية الصغيرة لسنوات الجفاف بعكس الأودية الكبيرة كحلى وبيش والتى تعتمد على الفيضان المؤكد كل سنة. وفى السنة الماضية تراجعت ضفة الرى الرئيسية فى وادى حلى ونتيجة لذلك فلقد هجر السكان جزء الوادى الذى يقع فوق بيضان وانتقلوا إلى وادى يبا. وقد تحصل الفيضانات فى أى شهر ولكن المعتاد أن تسقط فى الشتاء والخريف ويقوم السكان بحجز المياه وتوزيعها على مساحة كبيرة بواسطة ضفاف تدعى زابر Zabir والتى تستدعى عناية مستديمة. وهذه الفيضانات لا يمكن التحكم فيها وقد تدمر المحصولات الناشئة. والمحصولان الرئيسيان هما الذرة، والتى تزرع فى ترسبات الطمى وتنتج ما بين ثلاث إلى خمس حصدات في البذرة الواحدة[١٣]، والدخن والذى يزرع كمحصول يعتمد على المطر فى الخبت أو الأرض الرملية فيما بين الأودية. وتحصد الذرة أول مرة بعد خمسة أشهر من بذرها ثم بعد ذلك كل شهرين حصدة، أما الدخن فيحصد مرة واحدة بعد ثلاثة أشهر من زراعته. وتعتبر سيقان الذرة وليس الدخن مفيدة جداً كعلف حتى وإن كانت جافة. وعندما ينجح المحصول فى شهرى يوليو وأغسطس يستعمل لهذه الغاية فقط حيث أن الـرياح الحـارة المحرقة فى هذا الفصل تجفف حبوب الذرة. ويزرع السمسم على حافة السهل الفيضـى حيث يزرع ـ أيضاً ـ كمية صغيرة من القطن والفاصوليا.

وليس لدى التهـاميين دورة زراعية ويبـذرون غالباً عندما تفيض الأودية وتوجد بعض البساتين الصغيرة حول بعض الآبار حيث يزرع الطماطم و أوبيرجين Auber-gins وإصبع السيدات والقرع والحبحب والشمام السكرى والأعشاب ذات الرائحة الحلوة[١٤]. ولا يزرع هنـا البصل والثوم والفلفل الأحمر ولكنها مع الليمون والعنب والمشمش والخوخ والرمان والموز والبطاطس وأعشـاب البرك والعشر تحضر من أسواق الحجاز. ويوجد عدد قليل من أشجار النخيل والتى تنمو غالباً فى وادى يبـا الأعلى وعلى طول الساحل فيما بين عمق والقحمة ولكن معظم التمر المستهلك هنا يصل عن طريق البحر من واحة بيشـة. وينمو نخيل الدوم هنا في أودية تهامة عسير فقط وتصدر

سعفه وأيضاً تباع فى الأسواق المحلية لعمل الحصير والحقائب والسلال والحبال.

ويملك التهاميون عدداً محدوداً من الإبل ومعظمها تملكه القبائل القاطنة شمال القنفـذة ويستعملون البقر فى الحرث وشق قنوات الرى. ولقد أخبرت بأن الرجل الغنى قد يملك مايزيد على ثلاثين أو أربعين بقرة؛ لذلك فمن المؤكد أنهم يملكون أكثر مما شاهدت. وتوجد ـ أيضاً ـ قطعان لا بأس بها من الماعز وبعض الأغنام والتى عموماً تعطى للبدو للمحافظة عليها كما أن رؤية الدجاج حول القرىٰ يعتبر منظراً مألوفاً. ويفضل التهاميون الحمير كمركوب مفضل ويسافرون عليها مسافات طويلة وفى وقت قصير بصورة مدهشة ويستعملونها ـ أيضاً ـ لجلب المياه من الآبار فى أوانى خزفية كبيرة تعلق على الجانبين. ويندر وجود حطب الوقود على الرغم من وجود بعض الأراضى المغطاة بأجمات الراك والأثل فى الأودية كما توجد أشجار السدر فى الحقول والتى تحفظ من أجل ثمرها.

ويعيش هؤلاء العرب فى أكواخ عشبية مستديرة ومبنية بناء حسناً. ويتألف كل كوخ من غرفة واحدة ويبنى كقطعة واحدة على هيكل من الأغصان وبدون عمود مركزى فى معظم الأحيان ويتم طليه من الداخل بالطين والوحل ويسقف بقش بحيث يثبت بمكانه بحبل دقيق. وتكون هذه الأكواخ متقاربة جداً فى القرىٰ، ويحاط بعضها بحـواجـز عالية من أغصان مقطوعة وبعضها الآخر تكون مطوقة داخل زريبة من سيقان الذرة المكومة. ومن المألوف أن ينزل الواحد عن جمله ويسير على قدميه عندما يمر من خلال هذه القرىٰ. وتصنع قدور الطبخ وقدور الماء والأكواب من الفخار المحلى ولونها عادة أحمر. أما طياس الشرب فهى مصنوعة من الخشب، وسفر الطعام والسلال تصنع من نخيل الدوم، ومخمضة الزبدة تصنع من قوقعة القرع. وتعلق كل هذه الأشياء على جدران البيت مربوطة بحبال جلدية. ويستعمل سرير الحبال للنوم والجلوس لأن الأرض تغزى باستمرار بالقرادات (القردان) على الرغم من أن البق والبراغيث لا توجد فى هذه القرىٰ.

ويشرب الأهالى عامة قهوة الزنجبيل[١٥] ودائماً يملأون الفناجيل ويقدم للضيف

فنجانين دفعة واحدة ويصنع الخبز أو العصيد من طحين الذرة فإن عدم فمن طحين الدخن[١٦] وهي الطعام الرئيسى ويؤكل مع زبدة مصفاة. ويشيع - أيضاً - أكل السمك الجاف والتمر ولكن أكل اللحم يعتبر ترفاً ويندر اللبن. والتهاميون فى تقدير العرب ليسوا أناساً كرماء.

يلبس الرجال بصفة مستديمة مئزراً مع خنجر أو سكين طويلة مربوطة فى الأمام وكذلك من الشائع أن يحملوا سيفاً ذو غمد فضى. ويتم كسوة الأطفال منذ صغرهم ويتمنطق كل الذكور بما فيهم الأطفال الصغار حزاماً جلدياً حول الوسط. ولقد حدث مرة أن شاباً صغيراً جلس يأكل معنا وقد نسى أن يتمنطق بحزامه بعد إغتساله، ولما انتبه لذلك قام من فوره ورفض إتمام المائدة معنا. ويلبسون - أيضا - جاكيت صغير ذو ألوان زاهية وضيق الأكمام خاصة فى أيام الأعياد. وللشباب والأطفال شعر طويل يقومون بفرقه من الوسط ودهنه على طول الفرقة بعجينة من لب الحب المسحوق. ويتم تثبيت الشعر الطويل بمكانه بلبس عصابة ضيقة من الجلد قد تزخرف أحياناً بالفضة. وفى أحيان أخرى يلبسون عصابة من الأعشاب ذات الرائحة الحلوة وإلا فيضعون حزمة من الأعشاب تلصق بعصابة الرأس الجلدية.

ويتمتع التهاميون بأجسام نحيلة فى لون القهوة ولهم شعر أسود متموج، ويتمتع الأطفال والشبان بجمال صارخ مع ملامح دقيقة وأنوثية. ويبدون مرحين سعداء وخالين من الهموم كما يتميزون بضحكهم وودهم وحبهم للمزاح وسلوكهم لا تكلف فيه لذلك فسلوكهم فى تقدير العرب فظ أخرق حيث أنهم لا يقومون لتحية الغريب كما أنهم يتمددون (يضطجعون) فى الأمكنة العامة بطريقة طبيعية سهلة بلا مبالاة. وحقيقة لاحظت أنهم لا يراعون مشاعر الآخرين ولكنهم ليسوا فظي الطباع.

ويعانى التهاميون من مرض الملاريا ولقد انزعجت من كثرة مرض السفلس (الزهري) والذى معظمه خلقى والذى شاهدت فى وادى حلى. كما لاحظت - أيضا - وجود حالات من مرض التراخوما وعدداً قليلاً من القرحة المدارية، وحالة مؤكدة لإلتهاب الزائدة الدودية. وتنتشر هنا الدودة الغينية وفيما بعد رأيت عدة حالات منها حول صبيا.

عندما وصلت إلى بيضان ، قرية للمشيق، وجدت سكانها مع جيرانهم يحتفلون بالختان والذي له أهمية عظيمة جداً في جميع هذه القبائل وهي الفرصة المتاحة للرقص والذى يستمر من أربع عشرة ليلة إلى شهر. وتجرى هذه العملية للغلمان ما بين ستة عشر وخمسة وعشرين سنة. وفى هذا الإحتفال كان هناك أربعة غلمان فقط يراد ختانهم ولكن فى بعض المرات يوجد ثمانية أو عشرة. ويلبس الأولاد ثياباً مميزة وسراويل تحتية مطرزة بلون أحمر حول الكاحل وهى تلبس تحت تنورة بيضاء كاملة ومحكمة على الوسط بحبل[١٧]، إضافة إلى جاكيت أحمر لامع. وفى الظهر والليل من كل يوم يجتمع الجمهور والأولاد المراد ختانهم يرقصون على إيقاعات الموسيقى التى يؤديها موسيقيون من الزنوج يستعملون آلات موسيقية تدعى الزلفة وهى طبل كبير يضرب بالأيدي وطبلين صغيرين تدعى زير وهي تضرب بالعصى، ومزمار مزدوج يدعىٰ صفريقه وتتحكم الزلفة فى حركات الرقصة المعقدة وأسلوبها. وأستطيع أن أرى ولدين صغيرين قد انضما للرقص لكى يتعلموا الخطوات وأطفال آخرين يتمرنون بعيداً عن الجمهور، وخلف الجمهور يقع الجيش أو المحاربون يتمايلون فى صف وسيوفهم مسلولة ومرفوعة عالياً وعلى رؤوسهم تيجان من الزهور مع كشف نصف أجسادهم. ويتم هذا الرقص فى ضوء القمر على إيقاعات الطبول الشديدة.

وقد قام الأولاد المراد ختانهم وقبل ميعاد العملية بيومين بالطواف على القرىٰ المجاورة راكبين جملين ومعهم أصدقاؤهم وأمامهم الفرقة الموسيقية. وفي كل قرية من القرى التى مروا بها تناولوا الطعام ورقصوا.

فى يوم العملية إجتمع خلق كثير جداً لمشاهدة الختان وفى آخر النهار وبعد أن رقص الأولاد انسحبوا إلى أكواخهم. وبعد ذلك تم نقلهم على أكتاف رقيق كل واحد بمفرده وقد لبس كل واحد منهم المئزر. وبعد إنزال الولد المراد ختانه تقدم أمام الحشد ضاماً يديه ثم قام رقيقين بإجراء العملية وبعدها تم حمله مرة أخرى على ظهر الرقيق ودار فيه بين الناس المحتشدين وهو يرقص بأكتافه وسواعده على أصوات الموسيقى. وقد احتقر أحدهم أن يركب وقام بتقديم عرض راقص مدهش ولم يقدم أى واحد منهم أية علامة على الألم رغم أن العملية، ولو أنها عدلت بأمر الملك عن سلخ الجلد

فى الماضى القريب، لا تزال تجرى بطريقة عجيبة ومؤلمة[١٨].

وبعد أن غادرنا وادى حلى فى كياد، والتى تعتبر سوق الأحد الكبير والمستعمل بكثرة بواسطة البدو المجاورين، سرنا عبر إنحناءة الوادى خلال منطقة بنى هلال؛ ورثة السفاح صاحب الإسم الاسطورى وهم يعيشون اليوم فى الأرض البركانية بين محايل وبرك والقحمة. ووفقاً للأعراف المحلية فإن لأبي زيد الحق فى استغلال وادى حلى كما أن قبر ولده عزيز اشتهر بأنه هناك. ومن خصوصيات بنى هلال وحتى وقت قريب اللصوصية وقطع الطريق والقتل وحتى اليوم فإن المسافرين عبر هذا الدرب ينظرون إليهم باحتراس. وعددهم محدود وهم يعيشون حياة بدوية فى هذه المنطقة البركانية.

وفى الماضى حصل ثوران بركانى من جبل شارف Sharif والذى يقع بالقرب منه نواة بركانية محفوظة حفظاً جيداً. ويمتد حقل الحمم البركانية (اللافا)، والذى من خلال نباته يبدو ذا عمر كبير جداً، من هنا وحتى البحر ما بين عمق والركوبه جنوب القحمة ويشمل كذلك حبحب الشيخ قرب برك[١٩].

عبرنا وادى حلى مرة أخرىٰ قرب محايل وهى سوق سبت مهم وتتبع إدارياً أبها وهى تقع على إرتفاع ١٦٩٠ قدماً [٥١٥ متراً] فوق سطح البحر. وبيوتها، كما هى الحال فى كل قرى العرضى Ardhi ، تتكون من بيوت حجرية ذات دور واحد ويجرى زراعة الأعشاب الحلوة فى قدور فوق السطوح المستوية. ولقد قمنا بتغيير جمالنا هنا لأن الجمال لا تستأجر في هذه المنطقة إذا كان المستأجر سيأخذها بعيداً عن القرىٰ. وبعد ذلك تتبعنا وادى طيه إلى عقبة شعار، وهى الممر الذى يأخذك عبر الحافة الجبلية إلى جبال الحجاز.

وادى طيه واد غنى وهو مزروع زراعة كثيفة بواسطة فروع بنى ثوار المستوطنين ولقد قام السيل بحفر ما يربو على ٤٠ قدماً [١٢ متراً] عبر ترسبات الغرين والطمي ليصل إلى طبقة الحصباء السفلية، ولكن هناك سلسلة من المجارى والتى تروى جميع المستويات. ويوجد فى الوادى محصولات طيبة من الذرة أرويت من السيل الأخير

حيث أن العواصف الممطرة على الجبال خلال العشرة أيام الأخيرة قد أحضرت كميات كبيرة من الغرين والطمى عبر الوادى. وقمة الوادى العليا لا يزيد عرضها عن ٢٠٠ ياردة [١٨٣ متراً] وهى منطقة حجرية ومحصورة بجبال عالية شديدة التحدر وذات صخور جرداء. إنه منظر مؤثر ومثير للرعب ومهجور إلى أبعد حد وتتخذ الصخور الواقعة حول عقبة شعار لوناً فضياً لماعاً ولافتاً للنظر.

ويوجد على رأس الممر[٢٠]، والذى يعتبر سهل نسبياً، مجموعة من القلاع التركية كما يوجد طريق تركى جيد يربط بين هذا المكان وأبها عبر بلاد بنى مالك. وعسير تتكون من القبائل التالية: بنو مغيث وبنو مالك[٢١] وعلكم وربيعة ورفيده والقبائل الصغيرة مثل عصام ورجال ألمع أسفل السودة. وعلى طول الطريق وفى أودية صغيرة بين تلال صخرية تقع قرى وحقول قمح وشعير وبساتين فواكه. وتبدو البيوت هنا متميزة ومبنية من الطين وبها عدة صفوف من الأحجار الناتئة مثبتة فى النصف العلوى من الجدران وذلك لتمنع التعرية. وتحرس الحقول والمناطق المرتفعة بإقامة عدد من أبراج المراقبة ذات الشكل المربع أو الدائرى وهى تبنى من قطع صخرية كبيرة مرصوفة ومزينة بأربعة أطواق من الكوارتز الأبيض، وبعضها الآخر تتخذ شكلاً دائرياً مستديماً وهى مبنية من الطين مع أو بدون صخور ناتئة[٢٢].

أبها مدينة صغيرة ترتفع عن سطح البحر بحوالى ٧٠٠٠ قدماً [٢١٣٤ متراً] ولقد بنيت حول القلعة وبها عدة محلات تجارية وهى مركز إدارى مهم جداً ويحكمها اليوم تركى السديرى؛ عميد الأسرة المشهورة والتى تدير ـ أيضاً ـ جيزان، والقنفذة، وجدة، والجوف، والظهران على الخليج العربى. والسوق فى يوم الثلاثاء وهو فريد بألوانه، وتلبس النساء فى هذا السوق فساتين زاهية الألوان وشيلان ساطعة فوق رؤوسهن. ويجتمع هنا عدد من العرب. تجد هنا رجال القبائل من تهامة، والنجديون بعباءاتهم المصنوعة من وبر الإبل، والبدو القادمون من الصحراء العظمىٰ إلى الشرق، وعرب الجبال والذين يلبسون ثياباً خارجية فضفاضة ومطرزة وتيجان من الأعشاب على رؤوسهم، وزوار من اليمن، وكذلك رقيق من حرس الأمير. وتباع فى هذا السوق وفي زوايا منفصلة الحبوب، والزبد واللبن، والحطب، والملح، والحنا،

والجص (الكلس الأبيض)، والقهوة، والعسل والتوابل، والقدور الخزفية، وقطع حديدية ومصنعة، والحصير، والسلال والحبال، والأقمشة، وجلود الماعز، والفواكه، والأعشاب، والأعلاف، وقليل من الماشية. ويبذر القمح (البر) والشعير فى هذه الجبال فى الشتاء أما الذرة فتبذر فى الصيف.

ولقد وصلت إلى أبها فى الثانى من مايو حيث تبدو معظم الحقول جرداء، وقد بذرت بعض الذرة سلفاً على الرغم من أن القمح والشعير لم يحصدا بعد كلية. وتبدو المنحدرات المزروعة فى كل الأماكن ذات مصاطب وقليل جداً من الحقول تروى من الآبار. والفواكه التى تزرع فى الحجاز هى المشمش، والخوخ، والبرقوق، والكمثرى، والتفاح الأخضر الصغير، والعنب، والرمان، والتين، والتين الشوكى، واللوز.

سافرنا من هنا إلى ظهران الجنوب والتى وصلناها بعد أربعة أيام ونصف مررنا خلالها عبر بلاد شهران، وقحطان[٢٣] والتى تقع فيما وراء تمنيه وهما قبيلتان كبيرتان وقويتان. لقد كان مبهجاً لتسافر عبر هذه الأراضى المرتفعة ذات الجو المنعش المعتدل والقرى المتعاقبة. ويوجد تنوع فى بناء وأشكال البيوت والتى تم بناؤها بشكل عظيم ومن عدة طوابق لغرض الدفاع. وكلها تتمتع بجمال حسن ومتجانس. وتتميز غرف الضيوف بأنها باردة وواسعة وبزخرفة أجزاء جدرانها السفلى بنطاقات خضراء وحمراء وسوداء. ولقد أمضينا أمسيات طويلة وسعيدة هنا حول موقد النار وبين رجال القبائل الذين لم تتسرب إليهم تأثيرات الغرب المتناقضة بعد.

وصلنا إلى ظهران الجنوب فى اليوم التالى لعبورنا ممر كوارى Qawari والذى يرتفع عن سطح البحر ٩١٠٠ قدماً [٢٧٧٤ متراً] وكانت منحدراته تضىء بزهور القابور (يبر) الذهبية. وفى نصف اليوم الأخير سافرنا عبر صخور بازلتية مقفرة متكونة فوق صخور جرانيتية. وتبدو ظهران الجنوب (٧٥٠٠ قدماً = ٢٢٨٦ متراً) رائعة ببيوتها الضيقة المحتشدة ذات الطوابق المتعددة والتى بنيت على طول وادى عرين Arin حيث يزرع قليل من البن. وتنتشر أمراض العيون هنا بشكل مذهل.

من هنا هبطنا إلى وادى قاع عبر ممر مفتاح الخشبة[٢٤] وهو ممر خطر قيل لنا يتعذر على الجمال سلوكه. وتبدو الجبال وقد كسيت ببساط من الزهور البرية وأشجار العرعر المتفرقة والتى تنمو على قمم الحروف[٢٥]. ولقد قمنا بتتبع الوادى عبر أجمات مدارية حيث يكثر الدجاج الحبشى فى هذه المنطقة، ووصلنا إلى جلة الموت بعد أن قمنا بالدوران حول حافة هضبة مشيط. يقع هذا الموقع المنحوس حيث يلتقى وادى الدفاع مع وادى ضباع فى حوض تحده جبال مرتفعة ويرتفع عن سطح البحر ٣٥٠٠ قدماً [١٠٦٧ مترا]. وقد توفى خمسة وأربعين حارساً حكومياً من تأثير الحمىٰ فى خلال سنتين فى المركز الإدارى الصغير. وفى هذه البلاد البرية والتى يصعب جداً الوصول إليها والمملوءة بالحمى وبين قبائل همجية لم يتحكم فيها إلا أخيراً يعمل أمير وعدد صغير من الحراس على حفظ القانون والنظام مستغلين هيبة ومقام اسم ابن سعود.

ويقطن بدو قحطان إلى الشرق من وادى الدفاع وإلى الغرب منه يوجد الريث والعزيين وعلى طول حدود اليمن تقع قبائل خولان من آل تليد وبنى مالك وبلغازى[٢٦]. هذه القبائل والتي وجدت أفرادها كرماء تختلف فى المظهر عن بدو العرضى بأن أفرادها يتمتعون بلون فاتح وأنف معقوف وأذقان ملحوظة ويشبهون البدو فى داخل الجزيرة العربية ويلبسون مئزراً قصيراً جداً لا يكاد يسترهم عندما يجلسون القرفصاء ولهم شعور طويلة ولكن الشباب غير المختونين يتميزون بحلق مساحة عريضة من أعلى رؤوسهم ويؤخر ختانهم حتى يبلغون عشرين أو ثلاثين عاماً والتى خلالها ربما يكونون قد تزوجوا وأنجبوا أطفالاً. وهذه القبائل مسلحة تسليحاً جيداً ومعظم بنادقهم إيطالية مصنوعة عام ١٨٨٩م. وهم يعيشون فى ملاجىء (أكشاك) حجرية، دائرية منخفضة وبسيطة ومسقوفة تقريباً بالأعشاب والأغصان وفى وقت الأمطار ينشرون جلوداً مدبوغة فوق السقوف منعاً لتسرب المطر. ويملكون قطعاناً كبيرة من الأغنام والماعز وبعض الأبقار كما يملكون إبلاً أكثر من القبائل الواقعة فى الشمال. وتزرع بعض القهوة وقليل من القمح والذرة والتبغ فى الجبال ولكن على العموم هؤلاء الناس لا يزرعون. وهم يقايضون السمن بالحب والقهوة فى أسواق تهامة وحدود اليمن ويحضرونها على جمال عبر جبال معدومة الطرق وشديدة الإنحدار،

وبـدلاً من أن يستعملوا الشـداد لحمل الحقائب المصنوعة من جلود الماعز يقومون بربطها على ظهر الجمل فوق جلد مطوى.

جبـل فيفا والذى يرتفع ٦٠٠٠ قدماً [١٨٢٩ متراً] فوق سطح البحر يقع على حدود اليمن وقـد حولت منحـدراتـه إلى مدرجات كثيفة لزراعة القهوة، والقات، والموز، والببـو Pawpaws ، والعنب، والقرع ، والخوخ، والتين الشوكى، والذرة، والقمح، والشعير. وبجانب جبل فيفا يقع جبل بنى مالك والذى يرتفع ٧٠٠٠ قدماً [٢١٣٤ متراً] فوق سطح البحـر وبه ـ أيضاً ـ مدرجات يزرع بها القهوة، والموز، والذرة، والقمح، والشعير. ويباع القات المحضر من جبل فيفا فى تهامة فى جيزان وصبيـا وأبوعريش ويباع بأسعار مرتفعة جداً ولكنه لا يزرع ولا يؤكل فى أى مكان آخر من تهامة الحجاز أو عسير. وكميات المياه فى كلا الجبلين ليست كافية وفي أيام السوق تباع القربة المصنوعة من جلد الماعز والمملؤة بالماء بأربعة ريالات.

من جلة الموت تتبعنا وادى الدفاع والذى سريعاً ما يغير اسمه إلى بيش. ولقد تعطل سيرنا بشكل مزعج نظراً للفيضانات المستمرة والتى حصلت نتيجة للعواصف الليلية والتى هبت على الجبال حيث أن طريقنا الوحيد يقع فى بطن الوادى. وفى كل يوم كنا نرى قردة السعدان، غالباً فى جماعات كبيرة والأرانب فى كل مكان. كما تنتشر هنا بشكل كبير الذئاب والضباع وأنواع من النمور الصغيرة الفاتحة اللون، والوعول Ibex والتى تألف جروف الجبـال. أمـا الغـزلان فتوجد فى السهل الساحلى فقط. انطلقنا حول جوانب جبل الريث الشرقية والشمالية شديدة الإنحدار حيث الوادى والذى على جانبيه تنتشر أشجار الدوم وهو يلتوى بدون نهاية بين أقدام الجبال الجرداء المسفوعة بحرارة الشمس. وكانت الحرارة مرتفعة جداً والسيل المملؤ بالطمى والذى يصل إلى ركبنا لا يصلح للشرب. وقد غيرنا اتجاهنا نحو الجنوب بعد أن وصلنا السهل بعد حقو Hagu وتسلقنا إلى هروب Harub وكان الجو معتدلاً على سفوح الجبال الواقعة تحت قمم أرض العزيين ومنجد المكللـة بالسحب حيث تزرع القهوة والقمح والشعير على سفوح الجبال أما الموز والببو فتزرع فى الوادى.

فى طريقنا إلى صبيا مررنا بعاصمة الإدريسي المهجورة «صبيا الجديدة» والتى تبدو قصورها المزخرفة وقد تداعت إلى حطام. ويوجد اليوم بعض الإشاعات عن الرجوع إلى هنا حيث أن صبيا بالى تعانى جداً من السيول. وتبدو جميع القرى أكبر من قرىٰ تهامة الشام وهى تغطى المناطق المجاورة والزراعة هنا واسعة. وتزرع أشجار النيلة هنا بشكل كبير ولا يزرع أبداً فى المناطق الواقعة إلى الشمال من هذا المكان ويصنع الصبغ فى أوعية ضخمة فى منطقة آبار القرية.

جيزان، والتى تدار منها تهامة وعسير، تمثل الميناء المحلى فى حين أن القنفذة، والتى تعرف عموماً بالبندر، تخدم شمال تهامة، وكلا الميناءين يتحملان فقط الدهو والذى يجرى إدخاله ـ أيضا ـ إلى البرك وقحمه. ولقد حضرنا سوق السبت فى أم الخشب فى وادى بيش[٢٧] وهو واحد من أكبر أسواق تهامة. وتصنع الخوذ هنا من سعف نخيل الدوم وهى خصوصية لهذا الجزء ويلبسها الرجال على الرغم من أن الرجال الكبار فى السن يفضلون قبعات مصنوعة من القش وعريضة الحواف.

الآن رجعت الى أبها بواسطة وادى عتود مستعملاً ممر ضلاع السهل وكان الحمام الأخضر كثيراً جداً فى هذا الوادى وأيضاً كانت هناك مجموعة من الطيور منها: الحباك، والرفراف، والكروان، والسبد أو الضوع، والأبلق الرمادى ذو الذيل الداكن أما فى الجبال فينتشر كاسر العظام والذى يهبط بين أقدام الجبال إلى انخفاض قد يصل ٢٠٠٠ قدما [٦١٠ مترا]. وتنمو زهور برية من أنواع متعددة فى الصخور البركانية والتى تمثل الوجه الغربى للجبال وكذلك فى القمة البركانية.

وحيث أن الطريق الجبلى إلى الطائف متعذر على الجمال سلوكه فقد اشتريت ثلاثة حمير من أبها وذلك لأن استئجارها كان سيكلفنا تأخيراً مستمراً. ويمر طريقنا بالنهاص وضافر على طول قمم الجبال وكان هناك عدة ممرات كبيرة وحواف تلالية متعاقبة بصفة لاتنتهى وشديدة الإنحدار ولذلك كان الركوب فى هذه الحال يعتبر أمراً مستحيلاً وبدلاً من ذلك قطعنا أكثر من ثلاثة أرباع الطريق إلى الطائف مشياً على الأقدام والذى كان صعباً جداً وأتعب قدماى حيث أن نعالي قد تساقطت قطعاً صغيرة ولم يكن باستطاعتى استبدالها.

تحتوى الجبال فيما وراء عقبة شعار على صخور جرداء ولكن قرب بيحان توجد غابات كثيفة من العرعر. بعد أن سافرت تحت الحافة الجبلية ثم بعد ذلك على قمم الجبال إلى ظهران الجنوب ظننت أن شجر العرعر حول السودة والذى رأيت فى العام الماضى كان حالة شاذة فى جبال جرداء خالية من الأشجار ما عدا بعض أشجار الطلح المتفرقة ولكننى وجدت الآن أنه إلى الشمال من أبها وعلى طول قمم جبال الحجاز توجد مناطق أحراج كثيفة وفى مناطق أخرى تكون هذه الأحراج كثيفة جداً. ومن أشجار هذه الأحراج العرعر، والزيتون البرى والطرفاء، والكاريسا Carissa ، والطلح[٢٨] .

ويتراوح ارتفاع هذه الجبال فى هذه المنطقة ما بين ٦٥٠٠ و ٩٠٠٠ قدماً [١٩٨١ ـ ٢٧٤٣ متراً] ونادراً ما يمتد إلى الخلف أكثر من ميل واحد.

ويحجب تهامة ضباب رقيق مستديم وفى بعض الأحيان يكون كثيفاً جداً لدرجة أن الجروف شديدة الإنحدار وعلى ارتفاع ٣٠٠٠ قدماً [٩١٤ متراً] تتلاشى فى فراغ ضبابي، وخلال أشهر الصيف يؤدي هذا التأثير البحرى إلى الحد من الرؤية فى السهل الساحلى إلى أميال قليلة. وفى الصباح تستمر الرياح غربية قوية ولكنها تضمحل عند الغروب وتعاود الكرة من الغد فى الساعة الحادية عشرة ونتيجة لذلك تتناقص الرؤية طوال النهار.

تنحصر النباتات الطبيعية فى المنحدرات الشرقية حيث أن الحافة الجبلية شديدة الإنحدار وصخرية وخالية من التربة الصالحة لنمو أية نباتات ما عدا بعض النمو الهزيل. أشجار الخلنج ليست شائعة ولكن الورود البرية والعليق والياسمين وضريمة الجدى وزهور الربيع والقرنفلى والأنشوصا والسرخس مع الحميض والقراص والنفل تنمو على طول الممرات مع وفرة الصيف الانجليزي بينما الخزامى والسذب تعطر الهواء الدافىء برائحة حلوة. ويوجد عدد قليل من أشجار الصفصاف على طول الأودية قرب الظفير.

وكلما كان ممكناً تحول منحدرات الجبال إلى مصاطب لزراعة محاصيل القمح

والشعير والدخن والذرة وتعتمد هذه المحصولات فى ريها على المطر ما عدا قليل من الحقول المزروعة بالبرسيم الحجازى فتروى من الآبار وذلك برفع الماء فى دلاء جلدية بواسطة الحيوانات التى تستعمل طريقاً منحدراً، وهي الطريقة الوحيدة المتبعة لرفع المياه ولسقيا النباتات فى الحجاز وتهامة. وتشيع زراعة أشجار الكرمة على تعريشة فوق هذه الآبار، وتزرع البطاطس، والطماطم والكوسا حول النماص. والمطر قد يسقط فى أى شهر ولكنه عادة ما ينزل ما بين نوفمبر ويناير أو بين أغسطس وسبتمبر، وكانت هناك آثار مطر عندما مررت بجنوب النماص ولكن إلى الشمال كان هناك بعض رشات المطر القليلة جداً فقط منذ فبراير.

فى شمال عسير توجد قبائل بللسمر، وبللحمر، وبنى شهر حول النماص، وبنى عمرو. وهذه القبائل تعرف مجتمعة برجال الحجر وهم يعيشون فى حصون مبنية من عدة أدوار بكتل من الأحجار الضخمة المصفوفة، والتى تلمع فى بعض الأحيان بطبقة من الجص الأبيض وتزخرف، كما هو شائع فى كل الحجاز. بنماذج من الكوارتز حول النوافذ الصغيرة. وفيما وراء النماص تعيش القبائل عادة فى بيوت ضخمة ذات طابق واحد وقاعات غالباً ذات حجم كبير جداً وسقوفها تعتمد على صفوف من الأعمدة الثقيلة والمأخوذة من شجر العرعر والطلح، ومزخرفة بنماذج محفورة وبقع سوداء. وفى بعض الأحيان يعيشون فى غرف صغيرة فوق الزرائب والتى معظمها تكون مخفاة خلف حائط أبيض مرتفع. وفى الجو الدافىء ينام الناس فوق السطوح لإن البق والبراغيث شائعة فى هذه البيوت الجبلية.

وصلنا إلى النماص فى يوم احتفال بالختان وتكون الاحتفالات داخل هذه القبائل محددة باليوم السابق للعملية والتى تجرى للأولاد بين عشر واثنى عشرة سنة. ولقد جرى إكرام جميع القادمين للاحتفال على عكس الاحتفال فى وادى حلى والذى لايتم فيه توزيع الضيافة. ولقد كان هناك حوالى مائة وخمسين من رجال القبائل مسلحين ببنادق المسكيت Tower muskets والتى لا يجرى تفجيرها بحجر القداحة ولكن عبر لفة من حبل دقيق يحترق ببطء. قام رجال القبائل بالإنقسام إلى أربع مجموعات ثم تدافقوا فى تعاقب سريع ومستمر على أرض فضاء ودبدبة وعليها إندفعوا بسرعة مع

رمى بنادقهم عالياً فى الهواء. وبعد ذلك أفرغوا بنادقهم المحشوة بخرق وأسمال بالية عبر طلقات متتابعة ثم احتشدوا مرة أخرىٰ لحشو بنادقهم بينما دخل الفريق الثانى الميدان مزخرفين بقوارير ملح البارود الفضى وزخارف أخرىٰ ولابسين ملابس كاملة وكانوا يمثلون مشهداً رائعاً يرى من خلال سحب الدخان المتصاعدة. ولقد حضر جمهور كبير جداً غطى الجدران والسطوح المجاورة ولا يكاد يسمع نتيجة للضجة التى لا تنتهى. وفى اليوم التالى جرىٰ ختان الأولاد الثلاثة.

أثناء سفرنا عبر قبائل بلقرن وبنى خثعم دخلنا بلاد غامد والتى مركزها الظفير وهى قرية صغيرة بنيت حول قلعة وتعتبر سوق الثلاثاء والذى منه يمكن الإستمتاع بمنظر رائع لجبل شدا الشامى فى نهاية الوادى. لقد وجدت أن قبيلتى غامد وزهران[٢٩] أكرم قبائل الحجاز بدون منازع. وغالباً جداً يتم إقفال الباب فى [بلاد بعض القبائل] متى ما شعروا بدنو الغرباء ولم تكن هذه العادة لتميز دينى بسبب أننى بلباسى العربى لم أكن متميزاً عن بعد ولأول وهلة يظن أننى مسلم، رغم غرابة هيئتى، حيث سيكون غريباً جداً في هذه البلاد أن تقابل رجلاً من ديانة أخرىٰ. ويدخل الضيوف البيت إذا كان المالك خارجه ويشعرون بأنهم فى بيوتهم وبين القبائل الأكرم لا يغلق الباب أبداً. . . .[٣٠].

وصلنا إلى الطائف فى الرابع والعشرين من يونيو بعد أن قطعنا المسافة من أبها إلى الطائف وهي ٣٠٠ ميلاً [٤٨٣ كم] بستة عشر يوماً متواصلة السفر. لقد وصلنا إلى النماص بعد أربعة أيام من سفرنا واحتجنا ستة أيام أخرىٰ لنصل إلى ضافر وكذلك ستة أيام أخرىٰ لنصل إلى الطائف. من ضافر كان هناك طريقاً للجمال إلى الشرق من هنا يوصل إلى الطائف فى أربعة أيام ونصف ولكنه يستلزم حمل مياه تكفى على الأقل ليومين والتى حملها ليس ضرورياً فى الجبال. لقد سافرنا باجتهاد شديد وكان متوسط سفرنا يومياً هو عشر ساعات وعلى الرغم من أن غذاءنا الرتيب كان خبز بر يغمس فى زبدة مع صحن من التمر أحياناً فإننى حافظت على لياقتى البدنية.

طوال هذه الأشهر الثلاثة ساعدنى جميع الأمراء الذين قابلتهم بكل ما يستطيعون

وأكرمونى بما تشتهر به شبه الجزيرة العربية من كرم الضيافة. لقد سافرت بين هذه القبائل والذين لم يقابلوا أو قابلوا فقط عدداً محدوداً جداً من الأجانب أو المسيحيين وكنت أستقبل استقبالاً حسناً حيث أن المسافر الذى يحمل رخصة من ابن سعود سيضمن أن يستمتع فى كل مكان بالحماية والمساعدة.

• • •

لقد تفضل السيد هـ . ب. فيلبى H. STJ. B. Philby . مشكوراً وفحص وصحح عملية كتابة جميع الأسماء العربية بالحروف اللاتينية في هذه المقالة وفي الخريطة. وأنا شاكر ومقدر له خاصة بعد أن رأيت كمية التصحيح التى احتاجتها المقالة. أيضاً أحب أن أشكره على وضعه تحت تصرفى رحلته غير المطبوعة من جيزان إلى الليث وعلى سماحه لى بإدخال أجزاء كبيرة منها في خريطتى.

مجموعة من النباتات والتى جمعتها خلال هذه الرحلة توجد فى المتحف البريطانى (التاريخ الطبيعى).

ملحوظة من المترجم:

في آخر المقالة يوجد بيان من راسم الخريطة G. W. Whibley عن كيفية رسمه للخريطة فى حوالى نصف صفحة ويمكن الإطلاع عليه بالرجوع إلى أصل المقالة.

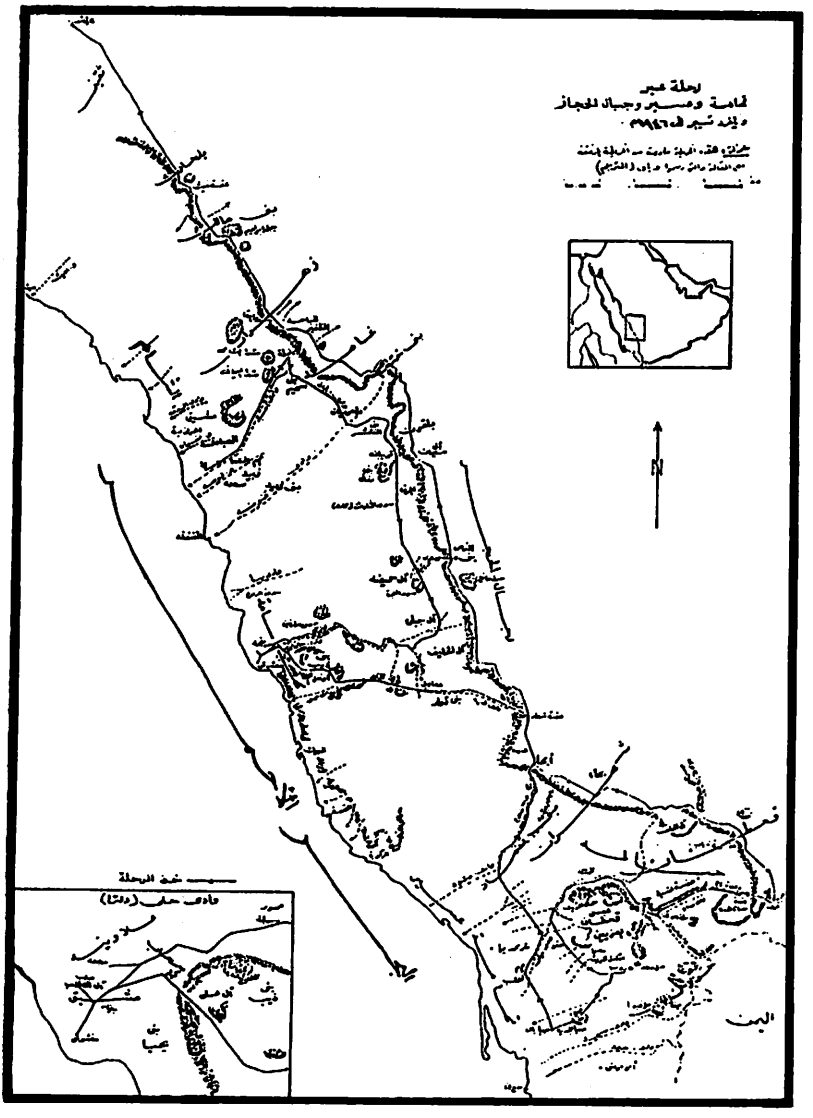
N

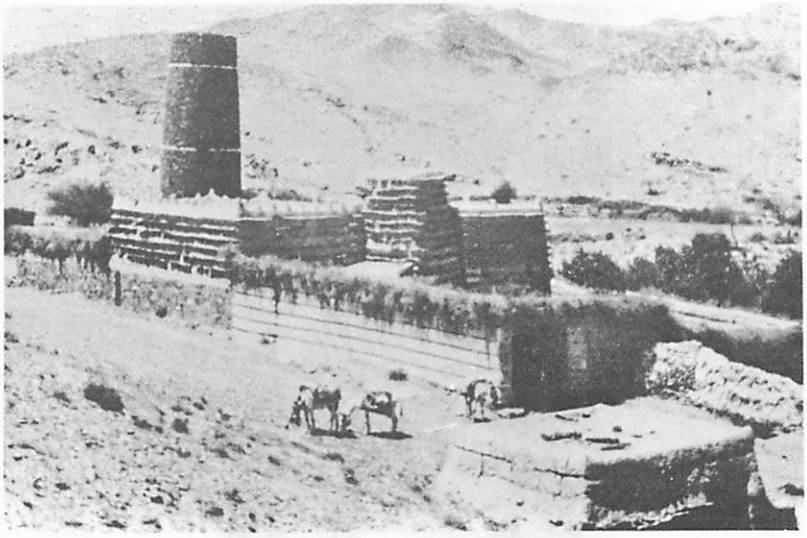

مباني من الطين بها عدة صفوف من الأحجار الناتئة لتمنع التعرية (عسير)

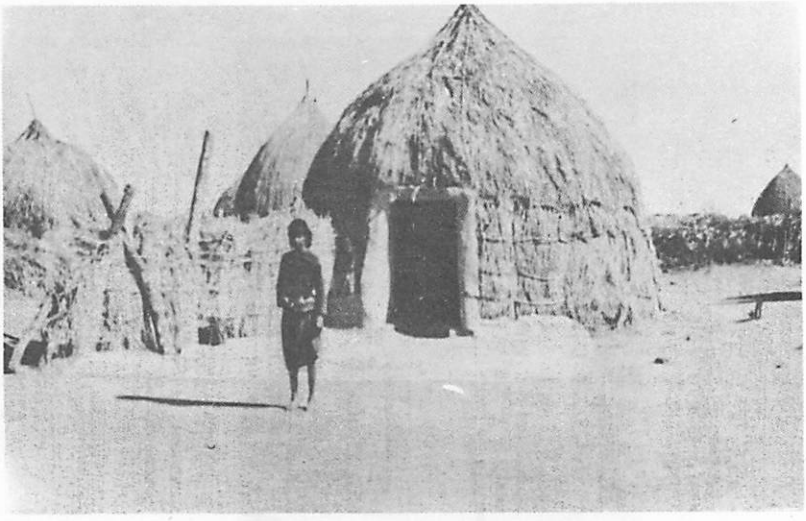

الأكواخ كمساكن في تهامة عسير

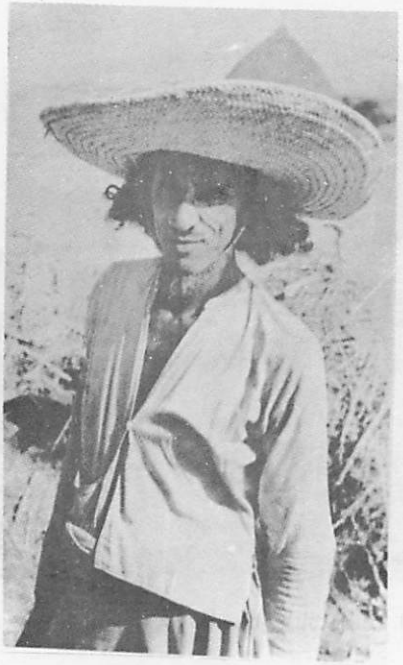

يلبس النـاس في تهامـة عسير قبعة مصنوعة من القش أو من سعف النخيل ذات حواف عريضة أو على شكل حوذة تغطي الرأس.

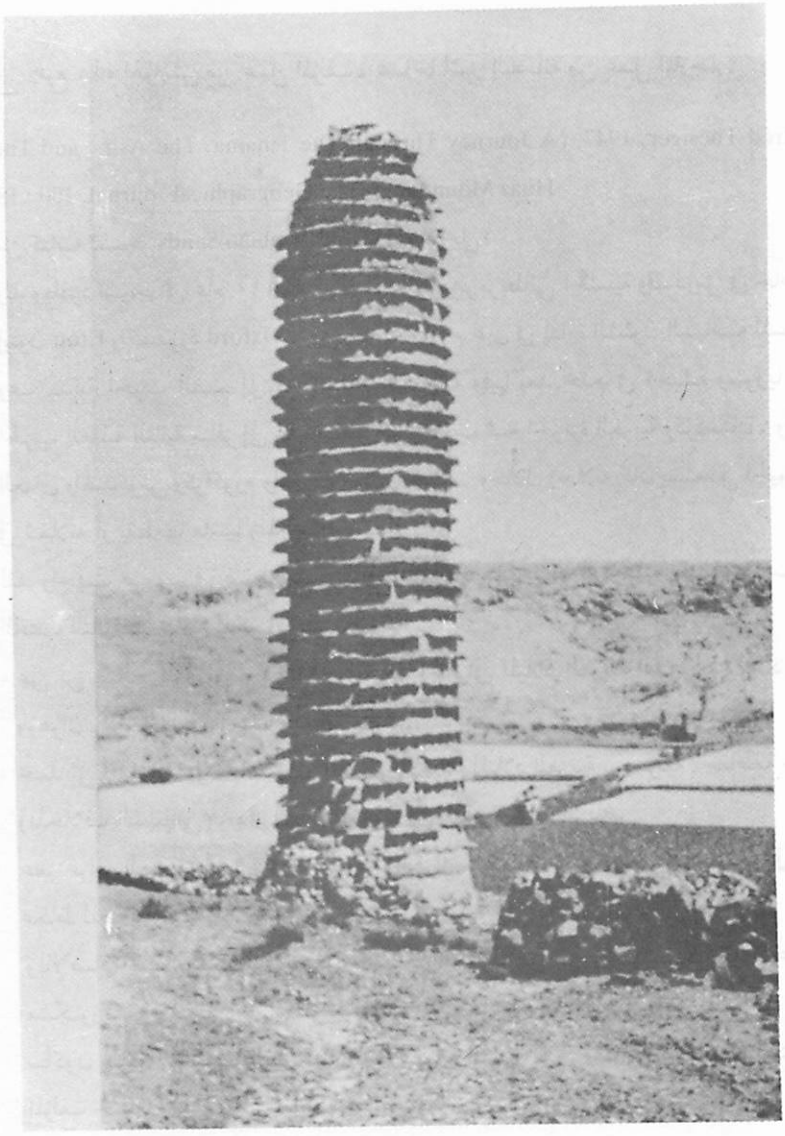

برج طيني مع وجود أحجار نائئة (بلاد قحطان)

الهوامش

ملحوظة: جميع هذه الهوامش من عمل المؤلف، عدا ما أشير إليه بأنه من عمل المترجم.

(١) Wilfred Thesiger, 1947, (A Journey Through The Tihama, The Asir , and The Hijaz Mountains), The Geographical Journal, 100 : 188-200.

(٢) من كتاب تسيجر Arabian Sands تبدو ترجمته كما يلي:
ولد ويلفرد تسيجر فى عام ١٩١٠م فى أديس أبابا وهو بريطانى الجنسية وقد درس فى جامعتى إيتون Eton واكسفورد Oxford . وفى عام ١٩٣٥م عين فى إدارة الشئون السياسية للسودان وعند بداية الحرب انضم إلى قوة الدفاع السودانية وفيما بعد خدم فى الحبشة وسوريا ومنذ الحرب العالمية الثانية سافر إلى عدة مناطق منها جنوب شبه الجزيرة العربية وكردستان، وأهوار العراق والهندكوش وكراكورم والمغرب وبلاد الحبشة. وخلال رحلاته كان يستعمل الحيوانات فى تنقلاته أو يقطعها ماشياً (المترجم).

(٣) لقد واجهت صعوبة فى ضبط أسماء المواقع التى ذكرها تسيجر فى رحلته وقد اعتمدت على الكتب التالية فى محاولة لذكر الاسم الصحيح:
- على بن صالح الزهراني، ١٣٩١، المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية: بلاد غامد وزهران، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض.
- محمد بن أحمد العقيلى، ١٣٨٩، المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية: مقاطعة جيزان (المخلاف السليمانى)، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض.
- عمر غرامه العمروى، ١٣٩٩، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: بلاد بارق، دار عكاظ للطباعة والنشر، جدة.
وبالإضافة لهذه الكتب فقد اتصلت بعدد من أبناء المناطق التي زارها تسيجر وقد ساعدونى مشكورين فى ضبط أسماء المواقع ورغم ذلك فإننى أتوقع وجود بعض الأخطاء والتى سأكون شاكراً لو نبهت إليها. ولقد اثبت كتابة الأسماء بالحروف اللاتينية التى استعملها المؤلف لجميع الأسماء التى لم أتأكد من ضبطها.

(٤) هذا رأى المؤلف الشخصى والذى لا يعبر عن الحقيقة فهو يقصد الملتزمين بالإسلام إلتزاماً دقيقاً (المترجم).

(٥) فى يونيو ويوليو من عام ١٩٤٧م سافرت من القنفذة على جمل عبر الساحل حتى صبيا وجيزان ومن هناك عبرت أبو عريش إلى جبل فيفا ومنه إلى جبل بنى مالك وعبر جبال آل تليد عديمة الطرق إلى ظهران الجنوب. ومن ظهران الجنوب قمت بزيارة نجران ثم أبها وبعض المعلومات التى جمعت خلال الرحلة مذكورة فى المقالة والخريطة إضافة لذلك انظر:

St. J. B. Philby (The Land of Sheba)

والمنشور فى Geographical Journal عدد ٩٢ من عام ١٩٣٨ من صفحة ١ حتى ٢١ وأيضاً من صفحة ١٠٧ إلى ١٣٢، وانظر أيضاً Sheba's Doughters والصادر فى لندن عام ١٩٣٩م.

(٦) يمتد السرج (الشداد) الوحيد المستعمل فى تهامة والمسمى الخيّ على كل ظهر الجمل.

(٧) فيما يلى أسماء الأسواق المجاورة: خميس القنفذة، وجمعة وادى الأحسبة (اليمانى)، وأحد القرماء، وإثنين وادى يابس (غامد)، وثلاثاء بنى عيسى، وأحد وادى الدوقة، وإثنين بنى سهيم، واربعاء بنى بوهير، وخميس بنى منتشر، وأحد عوامر، وسبت شمران، وأحد بنى رزق، وثلاثاء عمارة، وسوق أهل سليمان: الأربعاء فى النخل والخميس فى الجوف.

(٨) فيما يلى أسماء أسواق بارق: إربعاء الحميضة فى العجمة، أحد آل موسىٰ فى القريحاء، جمعة الحميضة فى ثروق، سبت الأصبعى فى شهار، ثلاثاء بللسمر فى المنظر.

(٩) الأغنام من النوع ذو الذنب الأبيض السمين والرأس الأسود أما الماعز فهى سوداء أو بنية أو ملونة جزئياً. وتوجد فى العرضى سلالة من الماعز بنية اللون ولها قرون تشبه قرون المارخور [ماعز جبلى متوحش يعيش بين أفغانستان والهند] أما الغنم فى الحجاز فهى بيضاء والماعز سوداء.

(١٠) أسواق وادى حلى هى: أحد كياد، اثنين المغشوش، اربعاء السبطة، وخميس ربحا. وأسواق وادى يبا هي: ثلاثاء بللعير، اربعاء بنى يالا، جمعة ربيعة، وسبت سواريدة.

(١١) التصرف هنا يقصد به البيع أو التنازل أو المناقلة لقاء بديل، ويقصد تسيجر - وهذا هو الواقع - أن الواحد من هؤلاء لا يبيع أرضه لمشتر من خارج أفراد القبيلة كما لا يبيع أرضه حتى لأحد من القبيلة إلا بعد موافقة أبنائه (المترجم).

(١٢) يسكن وادى لومه Luma قبائل زبيد وسعدة؛ وفى وادى دنقه تسكن قبائل خيارة والمشيق Mushaik وأشراف الحرازية؛ وفى وادى قنونه تسكن قبيلة بنى زيد، وفى وادى ناوان Nawan يسكن بدو الرواشيد؛ وتسكن قبيلة زبيد فى وادى القرماء، وبنى هلال فى وادى عمق.

(١٣) خلال رحلتى عبر تهامة فى عام ١٩٤٧م تأكدت بنفسى من هذه الظاهرة عندما شاهدت

خامس حصدة فى وادى حلى فى شهر يونيو.

(١٤) من الأعشاب ذات الرائحة الحلوة : الريحان ، والشيح ، والشار والقادى Kadi .

(١٥) أيضا يشرب الأهالى فى تهامة وخاصة تهامة عسير شراباً يدعى «قشر» وهو نقيع مصنوع من قشور حبوب القهوة.

(١٦) يفضل البدو على كل حال الدخن على الذرة.

(١٧) لا يلبس السراويل التحتية والتنورات المربوطة بالوسط إلا الأولاد المراد ختانهم خلال الاحتفالات قبل عملية الختان وأما لبس الخناجر وحمل السيوف فليس متوقفاً فقط على المختونين.

(١٨) الختان بسلخ الجلد والذى يتم فيه إزالة الجلد نهائياً من السرة وحتى داخل الفخذين كان معمولاً به فى تهامة قبل أربعين سنة ولا يزال بعض البدو يطبقون نفس العادة القديمة. ويتم العمل فى تهامة وحتى وقت قريب بطريقة معدلة والتى يتم فيها سلخ كامل الذكر ولكن هذه الطريقة محرمة الآن بأمر من الملك ولكن يجوز إزالة عرض إصبعين من جلد الذكر بأن يتم ضغطه ثم قطعه في قطعتين واحدة علوية والأخرى سفلية ويتم تنظيف الجرح يوميا وربطه بورق الصالا Sala . ولقد تم قطع أيدى ثمانية أولاد عام ١٩٤٥م فى وادى حلى لأنهم خضعوا لعملية الختان المحرمة.

(١٩) يفصل حقل الحمم البركانية (اللافا) تهامة الشام عن تهامة عسير. ويجرى إدارة برك من القنفذة أما القحمة فمن جيزان وفى الماضى كانت تهامة تحت حكم الإدريسى.

(٢٠) الممرات المؤدية إلى تهامة شمال أبها هي : ممر صمع (السودة)، وقدها (العصامى) ، وشعار (وادى طيه)، والجدع (بيحان)، وجلجلا (بللسمر)، وساقين (تنومه)، وسنان (النماص).

(٢١) هنالك ثلاث قبائل تدعى «بنو مالك» فى مناطق مختلفة هم : بنو مالك جنوب الطائف، وبنو مالك فى عسير، وبنو مالك فى عسير، وبنو مالك على حدود اليمن فى رأسى الواديين ضمد والدفاع.

(٢٢) البناء بالأحجار على طول هذه الجبال يقوم على طريقة البناء بالحجر المرصوف، وتملأ الفرج بكسر الحجارة لجعله أملس ناعماً كحجر مربع منحوت، وغالباً ما توضع نماذج من الكوارتز الأبيض في الجدران وبعامة حول النوافذ، وأما ما بنى بالطين فتحاط نوافذه غالباً بالجص الأبيض أو بلون برتقالى.

(٢٣) الفروع المستوطنة من قحطان هي : بنوبشر، رفيده، شريف، سنحان، عبيدة، وادعة؛ وأما فروع شهران فهى : تمنية، المسقى Masgi ، الجهراء، سيحان Si-han ، وادى ابن هشبان Hashban ، ناحس Nahis ، كوت تندحه Kaut Tintaha ، عتود، قاره Qara ،

بنى ماجر Bani Majar .

(٢٤) الممرات الموصلة إلى تهامة جنوب أبها هى : ضلاع ، جادله Jadla (عتود) ، القرون (تمنية) ، آل الخلف (وادى بيش) ، شراقيب Shuragib (رأس بيش) ، مفتاح الخشبة (وادى قاع) ، علب (حدود اليمن) .

(٢٥) هذه الجبال بركانية ولكن على قمة الممر والذى يرتفع ٨٠٠٠ قدماً [٢٤٣٨ متراً] فوق سطح البحر يوجد طبقة من الحجر الرملى القرنفلى اللون والذى تتكون مادته اللاحمة من الكاربونات .

(٢٦) هكذا أوردها المؤلف ولم أجد في المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ـ مقاطعة جيزان سوى آل غازى أو بنو الغازى (المترجم) .

(٢٧) من الأسواق : أحد هروب Harub ، اثنين الحقو Hagu ، ثلاثاء صبيا ، اربعاء أبو عريش ، خميس مغزا Maghza ، خميس الدرب ، سبت بيش (أم الخشب) .

(٢٨) نطاقات النباتات الطبيعية التقريبية هي : السلم والسمر والأثل والسدر تنمو إلى ارتفاع ٥٠٠٠ قدماً [١٥٢٤ متراً] ، وجيراد gerad (Acacia senegal) تنمو ما بين ٥٠٠٠ و ٧٠٠٠ قدماً [١٥٢٤ ـ ٢١٣٤ متراً] ، والطلح ما بين ٦٥٠٠ و ٧٥٠٠ قدماً [١٩٨١ ـ ٢٢٨٦ متراً] ، والزيتون البرى ما بين ٥٥٠٠ و ٧٥٠٠ قدماً [١٦٧٦ ـ ٢٢٨٦ متراً] ، والعرعر ما بين ٦٥٠٠ و ٩٠٠٠ قدماً [١٩٨١ ـ ٢٧٤٣ متراً] ، والورود البرية ما بين ٨٥٠٠ و ٩٠٠٠ قدماً [٢٥٩١ ـ ٢٧٤٣ متراً] .

(٢٩) بعض من فروع قبيلة زهران هى الآتي : بيضان ، بنو حسن Hassan ، بلخزمر ، بنو كنانة بنو عمرو ، عمر ، عدوان Adhwan ، قريش .

(٣٠) لقد عدلت عن ترجمة هذا الجزء والذي يشكل حوالي الأربعة أسطر نظراً لأنه ليس مهماً للقارىء ويحتوى على معلومات خاصة بالمؤلف ويمكن الرجوع إلى الأصل للإطلاع عليه (المترجم) .